قصة من العراق

بقلم

عبد الرزاق حسيم المطلبي

كان ابي صورة فريدة في هذا الزمان ...

كان قطا ، شديد القسوة ، هائجا دوما كالاعصار ، ثائرا ثورة البركان العنيد . حانقا ابدا ، بسبب وبلا سبب ، ولم اعرف حقيقة ما يدور في ذهنه . وكنت اراه طيلة سنوات حياتي في خط متصل وغضب جامح .. رباه !! ترى كيف سلك مع الناس درب الحياة الطويل !! ...

كان نارا موقدة تحت قدر اولى ، يحرق بناره الناضج من كانوا حوله ، انا وامي واخوتي الصغار ، فكنا جميعا نتقلب في مياه غضبه العاتية بلا استثناء ... حتى الصغير الرضيع ، وكنا جميعا صابرين ، بانتظار رحمة الله

وكنا نتحاشاه . كنا نهرب او نتهرب منه ، فان حدث ورددت عليه ، كان الخطب الهائل والمصيبة الكبرى . ومع هذا فقد لاءمت الصمت وعشت ماضيها الصغير والتالم . كابحا جماح الغضب الذي يتدمدم في دخيلتي احيانا ..

حتى كانت تلك الساعة !!

وذهلت الى بيتنا مسرع الخطو ، وما لبثت ان تباطأت اقدامي حتى شدت الى الارض وجمدت في وقفتي مما عراني من خوف ، وثقل الصمت الرهيب الى قلبي ، وصرت انقل نظرات وجله بين الوجوه الغريبة ، فقد استشقت بدر العاصفة الهوجاء من قدحات العيون من حولي ولم ابس بنت شفة حتى ارتفع صوت ابي قائلا :

ـ اين كنت ... ؟

فاضطربت للحظات ، ونظرت الى امي مستغيثا ... ثم قلت بنبرة متعثرة :

ـ هـ .. هنا ...

ـ هنا ... اين .. ؟

ـ هنا ... في .. في الشارع

ـ شارع ابك . ابيك ؟! تصون من الصباح الى المساء كان ليس عندكم بيت تأوون اليه ... الا تخجل ... ؟

فاطرقت مركزا نظراتي على أصابع قدمي ، بينما تابع وقد اشتدت ثورته وعلا صياحه

ـ الى متى .. الى متى اشتغل وارمي باقواتكم .. لقد عجزت .. والله عجزت ...

وظل الصمت جاثما بصوته ،مكممـا افواهنا ، ولما لم يجد من يبادله الصراخ اقترب مني وانهال على صدغا ثم احد بخناقي صائحا

ـ امكم ... امكم هي السبب ... بنت الكلب اضلعت كل اهلي فيكم .. افسدتكم بافكارها السخيفة ...

فحقنتني العبرة ، وتشنجت وجهي وارتعدت من الخوف ، وتركني وطفق يصفق يديه ويدمدم ثائرا متوعدا ، وما ان اقترب من امي حتى ركلها بقسوة صارخا بوجهها

ـ كل شيء منك ... انت ... انت السبب يابنت الكلب ...

واقترب اخي الصغير من امه لائذا باكيا يطلب بصمة فلوس ... وياللهول ما كان ... امتدت يدا ابي الى الصغير وامسك به من اعلى ثوبه ، وجره على الارض ثم صفعه صارخا

ـ حتى انت ؟! حتى انت تأثرت بامك

ثم دفعه دفعة قوية ،وكان في ذروة غضبه وثورة حنقه ، فما ان صرخت امي فزعة منه حتى هجم عليها وقبض على عنقها صارخا بوجهها بكلتا يديه ، وهكذا خط الخطب الفادح ، برأس المصيبة في دارنا ، وحينما حدثت المعجزة ... حينما انفلتت كلمات واهنة من شفتي

ـ بالحسانا ؟! متى نخلص من هذا الجحيم ... ؟!

ولم ادر كيف نطقت بهذا ... ؟! فقد انطلقت الكلمات دون ما وعي مني ... وفغرت فمي دهشة وانهال علي صفعا .. واردد جمودا ، وظلت احدق في الفراغ العاوي باعماقي ، وراع بصري من الاشياء والناس المتناثرين من حولي ... وصفعة اخرى ، وارتجفت شفتاي، وحدقتي العبرة ، بل مرقت احتشاي وتوالت الصفعات .. ولم اتحرك .. وركلني ، ودفعني هكذا فتصلبت ، وحملقت ملامحي ... وظلت تصفعني منحفض

ـ كفى ... أليس من حد لهذا ... ؟

وانتفضت وهززت رأسي ... ونظرت الى من حولي مستنجدا ... ولاول مرة وقفت ، وقفت متحديا محالفا طبيعة الخنوع في ... وبقيت بعض ساعة موقفي الا اني صرخت غير عابيء بشيء

ـ ملاذنا .. ؟ لم نسوى العذاب؟ انا اتاس ونريد ان نحيا كحياة غيرنا من الناس ...

« رباه !! من اين جاءني هذا ... ؟ من اين ؟! »

ولاول مرة ايضا قال ساخرا مني ..

ـ من علمك هذا .. ؟ انت انسان .. ! همم ..

فعلت وقد استردت شيئا من قدرتي على الكلام .

ـ طبعا انسان ... وساحا كاي انسان ...

ـ اخرس يالابن الكلب والا حطمت راسك ... والا ...

ـ اطردنا اذا شئت .. اطردنا ... فقد سئمت حياتي ...

ودفعني صوب الباب صائحا

ـ اغرب عن وجهي .. اذهب .. عني لا أريد رؤيتك .. ياحاقد ياساقط ...

***

ودون صرخت حياده في راسي ؛ وطنت الريح في اذني طنينا مخيفا ، وتعالت اصوات عديدة ولم اع شيئا ، وتحركت قدماي بجهد . وبارحت بيتنا وانا ارد بحنق « لن ارجع لهذا البيت لن ارجع .. » واجتمع الناس في دارنا بينما تابعت سيري الوئيد ، وفكري الشارد يجوب آفاقا بعيدة العمر في راسي دون ان يقرلي قرار ، وصحت « ليذهب كل شيء وماقيمة المدرسة ما قيمة الحياة بلا كرامة .. بلا عرض » وثرت واوغلت في ثورتي العنيفة .

لكن هواجس عنيفة تحركت في صدري ، وصرخ هاجس « اخيرا يا هذا اهكذا تكون مع ابيك ؟ .. » وغلب ضراوة « ولكنه ظالم .. قد سحقت قسوته كل امل لي في الحياة .. رباه اني انا ؟ انت معيني ياقوي » وتاوهت .. ورعرت رعرات متتابعة وتابعت سيري ، وكنت اهدر راسي واحرك يدي دون ارادة بين في الشارع ، واخيرا قر رأيي على ترك البيت الى الابد . وان كان فيه تحطيم مستقبلي ، مستقبلي كطالب في الصف الرابع الاعدادي « وما قيمة كل هذا بدون حرية ؟! .. »

كنت في الثالثة عشر من عمري وقتذاك .. حينما دفعت بنفسي الى رحمة الفيل هربا من جحيم بيتنا وقسوة ابي ، وقيوده القاتلة ، واخذت المدينة ، لكن كيف وانا لا املك نقودا ؟ كيف سأتركها ، وتركت كل شيء لله .. وتابعت سيري ..

ومررت سيارة ضخمة كان القوم مشغولين بنقل اكياس الحنطة اليها . فاستلفت نظري بهيكلها الكبير وفراغها الصارخ ، فقلت في نفسي « تها .. تها .. سأهرب » فراقبت القوم من كثب منتهزا الفرصة لانشغال اكياس الحنطة « انهم لن يعرفوا شيئا عن هربي ولا الجهة التي انتويت وفجاة قلت « رباه ! ماذا يكون من امي .. انها لا تصدق بأني اهرب .. فكل آمالها معقودة علي وذلك القاسي .. انه لم يدر بخلده بأني استطيع الهرب .. اذن ليرى » وانتبهت على صوت السيارة يصدر فاتجهت اليها حتى حاذت مؤخرتها ، وما ان دوى بوقها وشاعت الحركة والاضطراب حتى ارتميت معتمدا على خفتها الخلقية ، وهناك طالعني وجه كالح لشخص منطرح على الاكياس وليصبح دقائق اخذ احدنا يحملق في وجه الآخر ، ثم ابتسمت بينما ظلت علامات الاستفهام والتعجب مرتسمة على ملامحه فقلت « السلام عليكم .. فرد « عليكم السلام »

ولم يرفع نظراته عني . وبحثت نظراتي بين الاكياس . وما لبثت ان استرجع نظراته ولم يقل شيئا ، وشعرت ببعض الحرج فقلت :

ـ اعتقد بأننا سنصل الى مدينة (ن) قبل الظهر .

وواصل صمته ، وكانت السيارة قد قطعت بضعة أمتار في سيرها ، وهكذا اجبرت هذه الحقة ثم تقربت اليه وفتحت صدري له بغير ما أكثه ،

وسع صدره لى فعرفت به الوحيد لعائلة تتكون من امه واخواته الاربع وقد اضطر للاشتغال بعد وفاة ابيه . اقصى الى بذلك وسيما الاسداد قتر وجهه . فقلت فى نفسى « ومالى انا ؟! لم لا احدو حذوه فاشتغل لنفسى . . ! »

وفى مدينة (ر) شاركتهم فى التفريغ مع الحمالين فاصبت ثلاثة دراهم . « رباه ! حمدا لك يا رب » قلت هذا وانا اقلب الدراهم الثلاثة فرحا . ثم انطلقت اجوب الازقة والطرقات والاسواق بحثا عن عمل . . اى عمل كان ، فكنت اتسمع واسأل . . ومضى اليوم الاول، ولم اعثر على ما انشد . .

وتذكرت ساعة يدى . وقررت بيعها . فما حاجتى بها ؟ وبعتها ، وقبضت ثمنها . ثلاثة دنانير ونصف . . « انها ثروة » وبحثت عن فندق حقير من الفنادق التى تمرح فيها الصراصير والصراصير . . وما عتمت ان وجدته . . وصرت ادفع ثمن نومى . . درهما كل ليلة . . .

وكنت على يقين بأنى سأقوى فى طريقها الى النهاية . . فتفكرت . . وتفكرت . وبينما كنت جالسا فى الفندق ، اذ لمحت صاحبا للاحدية متابطا ادواته . مارا بالجالسين فى المقهى ، يسأل هذا وذاك وينهمك فى عمله بصمت . . . « انه يعمل ! ! » قلت هذا ورمقت على شغفى . . .

وغادرت الفندق من فورى، ودخلت المقهى حتى عثرت على نفسى . . وصرت اصنع لاحذية اقاء على نفسى ، ووجدت سعادة عظيمة بعملى . . واخذت افتش على نفسى فلا اثق الا بمقدار ، اجمع النقود الى يوم العسر .

وذات يوم . . . لمع بين الصديق سلعته ، فقد ضارع على الانتهاء ولما اصب غير عشرين فلسا اجر حذاء واحد ، وطفقت الح المقاهى وابحث واسأل دون جدوى . فبعدت كثيرا واوغلت ملاحقا رواد المقاهى ، سائلا رواد الحدائق العامة ، حتى انتهى بى الطواف الى مقهى صغيرة كالحة . فاردت ان اعرض عليها الا انى دلفت اليها ولا ادرى لماذا ! ! وبنفس اللحظة دخلها صباغ آخر . فشعرت بشىء من الحنق،وهممت بالسؤال لكنى اكتفيت بنقل نظراتى اليائسة بين وجوه الرواد ، بينما مضى الآخر يسأل حتى حصل على حذاء يصلحه وتقيأت انا « آه . . يا للحظ . . ! الويل لى منه اذا ادبر » وتأففت ، ثم خرجت حانقا خطاى الى الفندق وانا اقول « انه ليوم نحس فما احدثنى بالاعراض عنه » ودلفت اليه اخيرا ، فرميت بكل ادوات الصنع بعيدا عنى وتوسدت ذراعى محمما وجهى فى الوسادة . فما امر الخيبة . . . ! !

وتتابعت الايام تاركة رعشات قاسية فى قلبى . ورمضات خفيفة فى اعماقى . وجفافا فى حلقى ، فمادا استطيع وعجلة الزمن تعرس اسنانها الحادة فى حنايا يوما بعد يوم .

***

انقضى على هروبى ستة اشهر ، ولم اسمع عنهم شيئا ، ولم اترك ما يبشر عنى ، حتى اسمى غيرته ، فعلت كل ذلك لامحو كل اثر للوشائج التى تربطنى بذلك الاب ، لكنى لم ارتح لبعادى عن البيت ، وان هناك امى ، واخوتى الصغار ، فما ذنبها لتتعذب من اجلى ؟ ماذا بها لتكبل وانا على قيد

.. لكل عل هذا يلصه درسا !!

وكانت ساعات حلوتي ساعات اسى وافراح ولوعة . اهرع فيها الى دموعى فاطلق لها العنان والتجا الى الله ستمحيه العقران « رباه !! كم تحملت من الآلام وكم ساحتمل !! » فكنت اشوه مشاعرى واقلب دموع شجنى الى دموع فرح وغبطة بحياة الانطلاق والحرية الجديده ، فانكر وخزات الالم واستنكر عواطف الشوق ما وجدت الى ذلك سبيلا وان عدمت السبيل القيت بنفسى فى احضان الدموع ، فكانت افكار الندم والخوف والحرقةالشديده تصيح فى راسى فتتركنى فى وهم من نفسى وشك مما ادعيه ، تائها فى حياة ضائعه منحطة فى ارقة مظلمة . سائر فى دروب تكتنفها الحيرة والقلق والهم العظيم ؛ وكثيرا ماترددت مؤنبا نفسى « لقد ركبت شططا لا يصلحه الا الله !! لانى متهور .. سخيف جدا .. والا فما معنى هذا !! » .

الله الله مما فى صدرى من مشاعر !! الله الله مما فى نفسى من نار ندم والتياع لادع .. « ماذا عملت يارب !! اكاد اموت كمدا ولوعه .. اكاد اذوب حسره .. » الصرخات الداويه فى اعماقى تمزق سكون نفسى وتقطع نياط قلبى كلما خلوت الى نفسى ،كلما طلبت الراحة مما اعانيه من نصب شديد .

واصبحت فى ازمة نفسية حاده ، فصرت اعصب لاتفه الاسباب ، اخرج حانقا وادخل حانقا ، ولفائف التبغ تأخذ طريقها تباعا الى فمى ، حتى اعتدت تركها بين شفتى دون ان المسها حتى تنتهى فامد يدى لارمى بعقبها الى اهرب من الناس ، احتى كل شىء حتى انفاسى فكمنت على نفسى والحقد الشديد يعمر دخيلتى على دائر الوجده ، التى لم تربا عن كل صغيره .. فبالنفس منى ، وبالى منها - بل وبالنا من الايام !!

ذات صباح .. خرجت مبلبل الخاطر ، مشتت الافكار ، اشعر بصداع شديد فى تيه لاحد له ولا مدى ، ضيقا بنفسى اشد الضيق - تائقا لرؤية مدينتى توقا تضرم ناره رغبة جامحة لرؤية بيتنا الحبيب وامى والصغار .. بل وابى العزيز .. ابى الذى صرت اسمع لكل كلمة سمعتها قبلا الحانا من الحنان الفياض والعطف الزاخر . فكم هرات نفسى عما رايته منها ..!!

واخذت افكر بوسيلة للذهاب اليهم .. طال تفكيرى دون جدوى ، واتصل همام روحى فى رياض احلام اليقظة السعيدة .. فكنت اتمثل امى وابى والصغار .. شريطا لعديدا من الاحداث .. وللحظات - خيل لى بانى بينهم اسمع حديثهم واسمعهم حديثى ، وهم يلتفون حولى يمعنون النظر فى «رباه !! ايمكن ان يكون هذا حقيقة .. !! » فم اشبه الا واذا الجاور المقاهى .. فوجدت نفسى فى السوق .. وفى ركن لسع الحر ، فتطلعت الى من حولى داهلا .. فكيف قطعت الشوارع واكثر السوق دون ان اشعر لحركة قدمى ..

ومن خلال نظراتى الساهمة ، تعذت صورة صبى صغير ممتقع اللون الى قلبى فاهتز اهتزازات عميقه وطفرت الدموع من مقلتى ، فسيطت نفسى ، ونسيت كل شىء - وصرت فى عالم غير عالمى الذى اعيش فيه ، فعانقت روحى

ذلك الحبال قبل ان افيق من ذهولي ... فما ان افقت حتى هرولت نحوه تاركا ادواتي في مكانها ، وامسكته من ذقنه وقبلته عدة قبلات ، فامسك ذلك الطفل بيدي محاهدا لابعادها عنه فقد اذهلته المفاجأة ، وللحظة ! التقت نظراتنا وشردت روحانا فدلفنا كل الى اعماق صاحبه ، وران صمت لم تسمع خلاله غير وجيب قلبينا ثم صرخ كل منا مناديا الآخر ... وتعانقنا .

ولم اعبأ باحد ... رفعته الى اعلى واجلسته على صدري ، واضعا خده على خدي متشممارائحته ، متلهفا لضمه في صدري ... فقد كان اخي ، اخي ذا الخامسة من عمره ، اخي الحبيب سالم !!

وتحركت شفتاه باضطراب ، ثم حاولت ان طفق يبكي ، فذرفت دموعي بصمت وانا الثمس منديلي مضطربا لا امسح دموعي وقد حبستني العبرة «الهي ... احمدك لك ... شكرا فضلك رهيبتني لا » ضممته الى صدري ، ولم استطع الكلام ، ولم يتكلم هو ... لم يتكلم ابدا ، ولم يتركني فقد وجد راحة عميقة في ضمي له ، ولما انعمت النظر في المكان رايت طبقا واسعا مليئا باقراص الخبز الطازج ، ارعفه ساحبه ، وعرفت انه بيع الخبز فصرخت فرحا داهلا !

ـ وابي ياسالم ... ! ابي ابي ... !!

ولم يبس سالم بنت شفه فقلت :

ـ كيف تركك بيع الخبز ... ؟

« ترى ماذا حدث .. ؟ ما الذي اراه ... ؟ .. رباه لكم اخشى .. »

وبكى سالم ، وبكيت انا الآخر

« رباه ! اني استجير بك من كل شيء ... رباه اليك امري ... » وانحنى سالم على طبقه ورفعه قائلا من خلال دموعه

ـ لندهب الى البيت .... فامي هناك ...

وابي ياسالم !

الا تتكلم ؟!

فنظر الي نظرة كسيره ، فيها الكثير من الالم والقهر ، ولم يتكلم .. بينما انهمرت دموعه بغزاره على خده الشاحب ، واودعت ادواتي عند «عطاره» قريب ومضيت معه الى البيت والف علامة استفهام ترتسم امامي في الهواء متحديه كل همسة دافئة بفم قلبي من فم سالم الصغير ... « اين انا ؟ .. وكيف جاءوا الى هنا .. ؟ وابي .. ؟؟؟ .. » كل هذه التساؤلات، وحشد كبير منها حالت في راسي وكل شيء حولي غارق في الصمت ، كل شيء يسبح في بحر من الغموض ، مخيم ثقيل ...

سار سالم وتبعته متفحصا الوجوه « آه ... لعلي ارى ابي في الطريق ... لعلي التقي به مصادفة فليس من عادته البقاء في البيت » هكذا قلت لنفسي وانا البع سالم ، اقتفي اثره ولهفتي تسبقه وتسبقه الى الطريق ...

وفي طرف من المدينة ... طرف تتضاءل فيه القذارة ، وتؤمه البؤس كل لحظة ... طرف حل ما فيه كوم نتانة وقبح ... اقتادني اخي سالم اليه ، فابي هذا من طرفنا اراضي البديع ، مدينة آبائي واجدادي .. !! اين بيتنا من مثل هذه البيوت التي حط عليها البؤس فمدت قذارة المظهر ، ودرية الهيكل كانهما حطائر حيوانات افقر الناس واقذرهم ...

وشققت طريقي معه وروحي تكاد ترهق مما احتاج اعماقي من شعور

جعدا ذلك الحي من اول وهلة رايته فيها ، بينما رحت عيناي تجوبان اطراف الحي وزواياه وتتسللان الى مداخل البيوت بحثا عمن اريدهم ، فحاسست كل منعطف وكل ملوى دون ان يفلتها الكلل ، حتى وقعت على شيخ مسنى العمامه ، امام بيت قدر كثيب ، يسربله الحور بسربال النعاسة والشقاء ، فعرفت فيها امي الحنونه !! كانت تبدو عجيبا ، فلهثت انفاسي وشعرت باللهفه الشديدة والفرحة العميقة يصطلان في صدري عاسرا قلبي لقوتهما ، وبقيت مسمر القدمين بينما ركضت سالم بقوة الى امه ، ومن بعيد احد يصيح

ـ اماه ... اماه ... هذا حامد

ـ حامد ... !! ... حامد .. !!

ورفعت راسها بشهقه ... ووقفت تنتظرني للحظه !! ثم صرخت من اعماق ام مكلومة :

ـ حامد ... ابني ... حامد ...

واعتلت على راكضة وقد سيبت ملاءتها في مكانها ، فجاءتني بتوجيه العصفاص فقط والقت بنفسها على وكانها تريد ضمي بصدرها ، امسكت باطلي واخذت تلهمني بقبلاتها ، صارت تقبلني في جسمي وفي راسي .. بكل شبر من جسمي بجهشة بكاء مر .. ثم احدقت تحملق في ، تحدق في بعينين مغرورقتين بالدموع ، ثم طفقت تقول

ـ حامد بالبس ... لم فعلت هذا ... ؟ فعلت بنفسك ؟ وفعلت بنا ... كيف استطعت العيش بدوننا ..؟ رباه ... لم اكن اتصور انك قاس الى ذلك الحد ولم اعرف ابدا عمل منك ياحامد اه وطفقت تبكي ... بكيت ، وكطفل غرير !! انهملت الدموع من عيني وسالت على خدي دون ان اتذكر عزة .. او كرامة ، او اعتدادا بالنفس ...

من خلال وجيب قلبي المرتفع

ـ امي ... اين ابي .. ؟ ... اين اين يا امي ... ؟!

فطفحت عيناها بالدموع ، وتجهمت ملامحها وكساها الحزن العميق ، حتى خيل الي بانه قضى عليها ، ثم اغاثت صوتها حشرجة كبيرا تحمل الكثير مما بالهم في سبيله

ـ لقد سجن ابوك ياحامد ... سجن بسبب مشاجرة مع احد اثرياء عمله ... بعد شهر من هروبك ... وقد حكم عليه بالسجن لمدة ثمانيه اشهر

وهممت ان اسالها عن سبب وجودهما هنا ، لكنها استطردت

ـ ولشهر خلا ... نقل الى سجن هذه المدينة ... فكان علينا ان ننتقل .. وهكذا ترانا ... انا اخبز وسالم يبيع ، فنحصل على قوتنا ، ونشتري له مايحتاجه ... ندخره له في اوقات مخصصه

ـ سجن ابي ... سجن .. بالنصيبة !!

وصرخت كما بكف ، وبلدت ملامحي ورهبت انفاسي ، فجف حلقي ولم استطع بلع ريقي وظلت نظراتي شارده تائهة .. لا هدف لها ..

وفي صباح اليوم التالي ...

اجتمعنا انا وامي ... واخوتي الصغار وحملنا بعض الطعام وعلبه السكاير والثقاب وتوجهنا الى السجن .. وهناك نسيت كل شيء ... واقبلت على ابي ملتهم الآلام كل جوارحي ، دامع العينين ، اطلب منه العفو والمغفرة .. فكان جوابه وهو يرتمي كتفي بحنان ابوي كبير

ـ لاعليك عليك يابني .. وستستفيد كثيرا مما حدث ... فالحياة تجارب ومظالم ؟